مناقشات

حول تعليق الاستاذ الجـرادي

بقلم محمد عيتاني

في العدد الماضي من « الآداب » نشر الاستاذ ابراهيم الجرادي مقالا بعنوان بين « العجيلي والعيتاني » ، كتبه بمناسبة زيـارة العجيلي لبنان والقائه محاضرة عن « رؤيته في القصة » ونشر هذه المحاضرة في « الآداب » وما رافق ذلك من تعليقات وكتابات .

وفي هذا الصدد ، وتعليقا على بعض ما جاء في مقال الاستاذ الجرادي أريد ان أوضح النقاط التالية :

حركة التجديد الادبية والفنية في أقطار الوطن العربي واقـع ثوري موضوعي . لكن التشوش الفكري لا يخدم هذه الحركة . مـن امثال هذا الارتباك الفكري وعسر الهضم النظري ، تتويج الجـرادي مقاله العصابي بهذه الصيغة « الاساسية » : « ومما لا يقبل الجدل ان تجديد الشكل هـو التوحيد الصحيح الذي يعطي المضمون روحـا خلاقة ومبدعة » . هذه الفكرة تقبل الجدل . بل تتطلبه بالحـاح ! وهي ، في افضل حالاتها ، لا تؤدي الا الى نزعـة شكليـة بحت تناقض تماما ما ينادي به الجرادي ، في مقاله « بين العجيلـي والعيتاني » من « أدب طبقي لينيني نضالي انتقادي متحـزب » . وسوف نرى ، في فقرات تالية ، من حماسة ابراهيم الجـرادي لقصتي صديقيه الاستاذين عادل ابو شنب ، وعبدالله ابو هيف ، وهما على التوالي « أحلام ساعة الصفر » و « الرجل الذي نسي عيد الميلاد » كما سنرى من نوعية هاتين القصتين ان مناداة الجـرادي بذلك الادب « الطبقي اللينيني المتحزب » غير جديه ، او انهـا جاءت من الوحي الآني لضرورة المناقشة .

غضب الاستاذ جرادي غضبة مضريـة ، بل داحس ـ غبرائيـة، لانني قلت في نقدي أبحاث العدد الخامس من مجلة « الآداب » ان العجيلي استشهد بنموذج « كاريكاتوري » من قصة نشرت في احدى المجلات . وتجاهل ابراهيم الجرادي الاساس الرئيسي في نقـدي لمحاضرة العجيلي في « الآداب » . وهو انني ذكرت ذلك النمـوذج « الكاريكاتوري » لادحض تماما رأي العجيلي السلبـي في حركـة التجديد . لقد تخلى ابراهيم جرادي عن اساس القضية وتحـول للدفاع عن قاصين سوريين معروفين ليسا بحاجة اتى حماية احد . اما اتطابع الكاريكاتوري ، فالذين حضروا ندوة « النادي الثقافي العربي » حيث ألقى الدكتور العجيلي محاضرته« رؤية في القصة »، يستطيعون ان يؤكدوا معـي ان المختـارات مـن القصتين كانت كاريكاتورية فعلا . وكنت ، شخصيا ، قد حصلت على عدد مجلـة « المعرفة » المكرس للقصة المعاصرة في سوريا ، وذلك قبل وصـول العجيلي الى بيروت . لكنني لم اكن قد قرأت بعد قصتي ابو شنب وابو هيف . اما تشكيك الجرادي في انني لم اقرأ قصة العجيلـي « حكاية مجانين » ومع ذلك قدمت تقييما لها في « كلمة التقديم »، فهو سوء نية لا مبرر له ، واستهانة بوعي القراء . وارجو ان يعيـد ابراهيم الجرادي قراءة قصة العجيلي ، ان كانت الحساسية المفرطة التي لديه ضد صاحب « الخيل والنساء » و « فناديل اشبيلية » لا تمنعه من ذلك ، وليقرأ حكم مجلة « المعرفة » على القصة ذاتها ، ثم فليستعرض رأيي في قصة العجيلي ، الوارد في « كلمة التقديم » المنشورة في « الآداب » وحينئذ يتضح لابراهيم الجرادي انه تسرع في سوء الظن . وانه ما هكذا يكون الكلام عن شخص ـ هو كاتب هذه السطور ـ يقول الجرادي عنه ان منظاره ومنظـار الجـرادي متقاربان . هذا فضلا عن قول ابراهيم جرادي« ان مترجم « رأس المال » محمد عيتاني يستند الى ثروة فكرية وانسانية لا تنضب ...» كما يقول عني : « الناقـد ، والروائي ، والقاص ، والسياسي ، العيتاني » لكنني ، لانني قلت كلمة موضوعيـة في المسيرة الفنيـة الكبيرة لعبد السلام العجيلي ، فسرعان ما تحولت أنا ، في نظـر ابراهيم الجرادي ، وفي نفس المقال الواردة فيه تلك المدائح لشخصي وثقافتي وادبي ، الى « متملق بدائي مغيث » ، والى « شخـص أهدر ـ والعياذ بالله ـ كافة قيمه الثورية » فمـا كان اغناني في الحالين ، عن المدائح المفرطـة والشتائم المهينة يا استاذ ابراهيم ، او انك قرأت بروح الاناة والتفهم الموضوعي كل ما يتعلق بهذه المحاضرة والزيارة وتعليقاتي الانتقادية في جريدة « الاخبار » اللبنانية عـلى مواقف العجيلي وقصصه وادبه وانتماءاته الطبقيـة العشائريـة ـ الاقطاعية ـ البورجوازية وتأثير ذلك على اعمال العجيلي الادبية ، بالاضافة الى مثاليته وانتقائيته وتناقضاته واعتماده في العديد مـن قصصه على عنصر الحظ ، والمصادفة ، والرغبة في مجرد اثـارة دهشة القارىء وفضوله اذن لما اندفعت في ذلـك الـرد الصاخب الهستيري . وكذلك فقد نحدثت انا في نفس عدد جريدة «الاخبار» اللبنانية (١٥ نيسان ١٩٧١) عن تطور قصص العجيلي بمعزل عـن مجرى التهر العريض للقصة العربية ، ولاسيما في القطر السوري، ولست أدري ان كان الجرادي قد قرأ فعلا هذا المقال الانتقـادي الجذري الاساسي الذي قيمت فيه الجوانب الايجابيـة مـن أدب الدكتور العجيلي ، وهي عديدة وهامة ، وكذلك الجوانب السلبيـة وقد أنهيت هذه الانتقادات بأن العجيلي في انعدام ضوء الخـلاص بالنسبة لابطاله ، الذيـن يصارعون قدرهم ولكن في جو من السوداوية وفقدان الامل ، انما يعكس« افلاس الطبقتين الاقطاعية والبورجوازية، اللتين ينتسب اليهما العجيلي ، في القطر السوري ، وعجزهما عـن مماشاة مسيرة التطور العربي » .

فاذا كان الاستاذ ابراهيم الجرادي قد قرأ هذه الاشياء ، وهـي نتف قليلة من لوحة انتقادية شاملـة لاعمال العجيلي نشرتهـا في عدد جريدة « الاخبار » الذي ذكرته ، وذكره ايضا الاستاذ الجـرادي ، افول اذا كان الجرادي قد قرأ فعلا هذه المقالـة في « الاخبـار » اللبنانية ، ومع ذلك فقد اصر عـلى وصفي بأنني « متملـق بدائي مقيت » وانني أهدرت كافة قيمي الثورية ، فلا يمكن تفسير ذلـك والحالة هذه الا ان الاستاذ جرادي يريد ان يشطب بجـرة قلم اسم عبد السلام العجيلي من تاريخ القصة العربية والسورية . وهـذه رغبة طفولية ، لن تتحقق له ، لان الرجل فرض نفسـه ، بمزايـاه الفنية ونواقصـه ، في ساحـة الادب العربي . واما ان ابراهيم الجرادي يريد مجرد الاساءة الـيّ ، وهذا ما استبعده ، اذ لا مبـرر له ، واما لان التشويش التام يلف مفاهيم الجرادي حول « معركـة التجديد الادبية والفنية والحضارية » ، العربية الراهنة ، لانهـا كما يقول « معركة بين الشيوخ والشبـاب ، بين اليمين واليسار ، بين الوصاية والرفض الخ » . وحينئذ ، وبالاستنـاد الى هـذه المنطلقات ـ التي بالمناسبة ، لا تربطها اية صلة بأفكار النظريـة الماركسية ـ اللينينية ـ يكون الاستاذ ابراهيم الجرادي قد سمح لنفسه بشطب من يشاء من لائحة القيم الثقافية والادبية والفنيـة الابداعية العربية ، واثبـات من يشاء فـي هـذه اللائحة ، بصـورة اعتباطية على طريقة كوهين ـ بنديت ، وفتيان ما يسمى بالثـورة الثقافية في بعض الاقطار الاسيوية الخ.

ينادي الاستاذ ابراهيم جرادي بـ « أدب طبقي لينيني مناضل متحزب » ، ومع ذلك فان اللينينية ، في الاقطار العربية ، لا تعتبر ان المعركة الثورية النضالية الناشبة اليوم ، بما في ذلك في الميدان الابداعي والثقافي ، بين الشيوخ والشباب ، بين الوصاية والرفض، بين اليسار ، أي يسار ، واليمين ، أي يمين . ان هذه عبارات غائمة ، لا يمكن ان يؤسس عليها الماركسيون ـ اللينينيون الحقيقيون استراتيجيتهم ولا تكتيكيتهم ، بما في ذلك في ميدان النضال التجديدي الثقافي التحرري والابداعي ، ولبناء ثقافة عربية وطنية ديمقراطية ثورية . الصراع الضاري الواقعي ، كما هو في الحقيقة ، هو بين قوى الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وبين مجموع الملايين العربية الغفيرة ، وفياداتها الثورية والثقافية ، بما في ذلك الشيوخ والشباب والنساء والفتيان . قد نقول : ان كثيرا من شيوخ الادب وعجائز الاسماء المحنطة يقفون حجر عثرة في طريق التحرر الحقيقي لشعبنا ، بما في ذلك ميادين الابداع الثقافي والادبي والفني ، وذلك بواسطة المواقع الخطيرة القيادية التي يحتلونها في اجهزة الاعلام الجماهيرية بمختلف الاقطار العربية . ونقول أن الامر في سوريا العربية يكاد يصل الى درجة التصادم . واود أن اوضح لك يا استاذ جرادي ان الطريق الصحيحة في ما يتعلق بالشبان الذين عندهم حقا ما يفعلونه ويقولونه ويبدعونه في سياق الثورة العربية السائرة قدما ، هو ان ينزلوا حقا الى ساحة النضال ضد الاعداء الحقيقيين اولا ، وضد التيارات المعادية للماركسية اللينينية ولمصالح الثورة العربية ، وضد التيارات اللاوطنية والتيارات المشوشة التي تروج لها بعض المنابر والمجلات المتسترة باسم الثورية والرفض والنبوة والصوفية و « اللينينية الحقيقية » والثورة داخل الثورة في وقت معا . من الواجب وضع الامور في موضعها الصحيح ، والنظر الى واقعنا العربي ، الاجتماعي والسياسي الجماهيري المقاتل ضد اعدائه المعروفين : الامبريالية ، والصهيونية ، والرجعية ، وهذا الموقف الذي تسير نحوه ، فعلا ، اليوم ، عشرات الملايين من جماهير شعبنا ، بمن فيها طلائع المثقفين الثوريين ، رغم كل الصعوبات القائمة في هذا الميدان ، ورغم قصر نظر بعض القيادات البورجوازية الصغيرة بالنسبة لدور الادب والفن ونشاطات الابداع الروحيه في الاسهام بدفع الثورة على نطاق ملايين الوطن العربي الى الامام ، هذا الموقف ، يتخطى بوافعيه وحدة تناقضاته واستراتيجية الثورة الكبرى ، مسائل ملتبسة ـ وخاطئة في كثير من الاحيان ، يستخدمها العدو الايديولوجي لحرف حركة النضال الحقيقي عن مسارها ـ كمسائل « الشباب والشيوخ » ، « والرقص والوصاية » ، الخ.

يحاول ابراهيم الجرادي في مقاله موضوع هذه المناقشة ، ان يقدم مجموعة ملامح لكتابات العجيلي ، لينتهي بواسطتها الى استنتاج يقول ان « ادب عبد السلام العجيلي ادب بورجوازي متخاذل » . لكن المقدمات والحيثيات والملامح التي قدمها الجرادي لم تكف لاقناعي ، واظنها لا تكفي لاقناع القراء ، فضلا عن النقاد والادباء ، بأن المقدمات التي اوردها ابراهيم الجرادي تقود الى الاستخلاص الذي توصل اليه الكاتب « أدب العجيلي أدب بورجوازي متخاذل » . ربما كان ادب العجيلي مفعما بالافكار البدائية الوحشية لعصر العبودية ، او ربما كان يقول بافكار اكلة لحوم البشر ، او ربما كان حقا مجرد صاحب « أدب بورجوازي متخاذل » ، ولكن لاجل اقناع القارىء بأحد هذه الاحكام ، أو بها كلها ، ينبغي تقديم دراسة ميدانية متكاملة لادب الرجل ، ويجب ان تجلى امام أعيننا كل هذه المعطيات التي جعلت من العجيلي صاحب ذلك الادب « البورجوازي المتخاذل » . فماذا فعلت انت ، في الواقع ، لكي تثبت اطروحتك ؟ لقد قدمت انت ، في هذا العدد العناصر التالية : العجيلي ينظر الى آلامنا من فوق ويتلذذ بها ، وهو لا يصنع لمشاكلنا الحلول . أفكار العجيلي عشائرية . وقصصه ملأى بحوادث القتل الوحشية ، والثأر بقسوة الاوباش ـ وهكذا فان شكسبير مثلا ، مسؤول عن مصرع عشرات الملوك الذين يتساقطون في مسرحياته كأوراق الخريف ـ وان العجيلي يتحدث عن مضافة عمه « حداد » ، والظاهر ان عمه هو شيخ عشيرة او شيء من هذا النوع (هذه ملاحظة مني) . وكذلك يقول ابراهيم الجرادي ان العجيلي يتحدث عن رحلاته المترفة الى اوروبا ، وعن بطن صديقته سالي الناعمة الملمس . وانه يكرس فقرة من احدى قصصه للحديث عن فرامل سيارته « انكاديلاك » الاوتوماتيكية التغيير . وان رؤية العجيلي في قصته ومقالته هي رؤية ـ بورجوازية ـ متخاذلة . في حين ان تينين يقول أن الادب دائما طبقي . واخيرا يصل الجرادي على اساس ذلك كله الى الاستخلاص السابق ذكره من ان أدب العجيلي « ادب بورجوازي متخاذل » . ان جميع العناصر التي ذكرها ابراهيم الجرادي ، لا تشكل في نظري ، درجات سلم هبط عليها أدب العجيلي شيئا فشيئا الى ان وصل الى بؤرة الادب البورجوازي المتخاذل . ان ما قدمه الجرادي هو عبارة عن جزئيات ، متفرقة ، مأخوذة بشكل اعتباطي من اعمال العجيلي ولا تشكل عملية تطور ، ولا خط سير موحدا .

وانا هنا ، لا انكر هذه الموضوعة ، كما لا أثبتها ، لانني لا أزعم انني قرأت مجموعات العجيلي الاربع عشرة بكاملها ، (٣٥ عاما من العمل الابداعي) ، وحتى لو قرأتها ، واردت أن اقيم قصص عبد السلام العجيلي بكامله ، وارسم خط السير العام لادب الرجل ، فانني لن اعامله على انه اديب بروليتاري يعبر عن حركة الطبقة العاملة العربية في بلده . سوف أنقده ، بكل موضوعية ، وعلى الاخص سوف اصف اعماله اولا ، تفصيلا ، واخضع هذه الاوصاف بمفاهيمي النقدية العلمية وأثر ذلك اجمع كل تلك العناصر في صيغة واحكام تركيبية ، لكنني لن اكتفي « بمضافة عمه حداد » ، « وبطن صديقته سالي» الناعمة الملمس «وفرامل سيارته الفخمة الاوتوماتيكية التغيير » . وعلى كل حال ، ففي العدد الخاص من مجلة « المعرفة » المذكور (عدد شباط فبراير ١٩٧١) المكرس للقصة المعاصرة في سوريا ، دراسات قيمة ، كان في وسعك ان تستعين بها لاستكمال اللمحات الانتقادية ، غير الكافية اطلاقا ، التي قدمتها لاثبات موضوعتك « البورجوازية التخاذلية » .

ان موضوعة « الادب الطبقي المتحزب » بحاجة الى وضعها في اطارها وابعادها الحقيقية ، على اساس عدة معايير وحقائق ومفاهيم ومباديء مستمدة كلها من نظرية وممارسة الماركسية اللينينية ، والواقعية الاشتراكية ، وعلم الجمال الماركسي ـ اللينيني ، والنهاجية Méthodologie الماركسية ، وعلم الديالكتيك ونظرية المعرفة.

وكل ذلك يجب ان يجري وفقا لمنظور التطور التاريخي ، مطبقا ، بصورة خلاقة، على مسيرة ادبنا العربي ـ ولاسيما القصة والرواية، موضوع حديثنا ـ في تاريخنا الحديث . اما الاكتفاء بعبارتين او ثلاث ، مقتطعة من هنا وهناك ، لدى معلمي الماركسية ـ اللينينية ، فلا يفيد في قليل او كثير .

أ) منذ ايام ماركس وانجلس، كان مؤسسا الماركسية ـ اللينينية يميزان بين النزعات والمواقف السياسية لكاتب ما ، وبين رواياته واعماله الادبية . هكذا فعل انجلس مثلا ، بالنسبة لبلزاك ، ذي الميول الرجعية الملكية ونجم الصالونات البورجوازية ، وصاحب الروايات الحافلة بوقائع حياة الطبقة البورجوازية ، واسرارها ، وفضائحها ، وفظائع وصوليتها ، والمصادمات التناحرية بين فئاتها وجماعاتها المختلفة ، وكون البورجوازي الصاعد كما يصفه بلزاك ، لا يبالي بأية قيمة خلقية او دينية في سبيل صعوده . طبعا ، كانت

اعمال بلزاك ، بالنسبة للعالم البروليتاري ، واحد مؤسسي الاشتراكية ، انجلس ، وثائق حية ، من لحم ودم ، وتجارب صادقة، وعرق ودموع ، صادقة الى ابعد حدود الصدق ، رغم الصياغات الروائية للوقائع والاسرار التي كان يكشف عنها بلزاك ، فهل ان ادب بلزاك كان ادبا حزبيا ؟ نعم ، ولا . كان ادبا حزبيا ، بالمفهوم الماركسي ـ اللينيني ، لانه بصورة عامة ، كان يسير في نفس اتجاه التاريخ ، ويساعد مجموع الشعب الفرنسي على وعي حقيقة الطبقة التي تسيطر عليه . لكنه لم يكن ادبا حزبيا كاملا ، لان بلزاك بسبب طبيعة حياته ، واضطراره لقضاء اكثر اوقاته في الصالونات الملكية والبورجوازية يصغي الى قصص الكونتيسات والدوقات والكونتيات، يروون وقائع حياتهم وما يعلمونه عن مجمل طبقتهم البورجوازية ، لكن بلزاك لم يستطع ، لذلك السبب ان يرى الجانب الآخر من المجتمع الفرنسي ، جانب الشعب ، والطبقة العاملة ، فقليلا ما نرى عمالا بروليتاريين في روايات بلزاك . ومع ذلك فقد كان انجلس وماركس يقدران هذا الروائي الكبير حق قدره ، لانه كما قلت كان يقدم لمؤسسي الماركسية كثيرا من المواد الخام التي كانا يضيفانها الى موسوعتهما العلمية عن المجتمع الاوروبي الرأسمالي ممهدا لاكتشاف قوانين تطوره ، فضلا عن المتعة الفنية التي كان ماركس وانجلس ينالانها لدى قراءتهما روايات بلزاك .

ولكن حين نضجت الثورة الاشتراكية ، مع قدوم لينين ، ونشوء حزب البلاشفة ، وذهب الشعب الروسي لهدم العالم القديم ، عالم الحكم المطلق والاستبداد الرأسمالي وبناء عالم الاشتراكية الجديد ، في ضوء الماركسية ـ اللينينية ، اخذ البلاشفة يبحثون عن الادباء والشعراء الذين يدعمون ثورتهم ، كما ان بعض كبار الادباء البروليتاريين ، مثل مكسيم غوركي ومياكوفسكي ، والكسندر بلوك ولوناتشاركي الخ. وقد انضموا بحماسة الى مسيرة الثورة الاشتراكية . ولم يتم ذلك دون مجادلات وخلافات حادة واحتكاكات ومناقشات طويلة ، بين لينين وغوركي مثلا . ان المبدأ الرئيسي الذي يمكن استخلاصه من تجربة ثورة اوكتوبر مع الادباء هو ان الادباء لا يمكن ان ينضموا الى الثورة الا بالاقناع والوعي وصول الاناة والتجربة الحسية . كثيرون يفهمون اليوم موضوعة « الادب الحزبي » على انها موضوعة عمالية Ouvriériste ، والفرق واسع بين المفهومين . الادب الحزبي الذي اراده لينين هو جزء من الثقافة التي كان يريد قائد ثورة اوكتوبر ان يثقف بها الشعب الروسي ، ثم جميع البروليتاريا العالمية ، لتحقيق الثورة وازاحة الطغيان الرأسمالي ، واقامة الحياة الجديدة ، الاشتراكية . هذه الثقافة هي : ١) ذات طابع ديمقراطي ، اي انها لجميع ابناء الشعب . ٢) يجب ان تستند الى جميع انجازات اتتراث الذي خلفته البشرية ، والاجيال السابقة جمعاء ، في عناصره الثورية ، والديمقراطية ، والحضارية الحية طبعا . ٣) ان تمضي قدما في طريق الترقي والتعقد لحاقا بأرقى الدول الرأسمالية ، ثم سبقها . ٤) ان تكون ثقافة متعددة القوميات ، في خدمة الشعب وحياته ، وخدمة الثورة العالمية . ٥) اعتماد الطابع الطبقي العمالي من جهة ، والافادة من امكانات جميع فئات الطبقات الاخرى كطبقة الفلاحين التي تستطيع ان تقدم شيئا في هذا الميدان . وبالنسبة لتوجيه الادباء ـ ولاسيما عملاقهم مكسيم غوركي ، كان لينين يعتمد طريقة الصراحة بل الصرامة المبدئية ، وفي الوقت نفسه كان يقابل غوركي بروح حارة من الحب والتقدير والود الصادق .

ورغم كل ما عانته الحياة الثقافية ، ولاسيما الادب ، في بعض الفترات ، الستالينية ، فقد تفتح الادب السوفياتي ، ليس فقط عن « ادب بروليتاري متحزب » ، مع ان ذلك كان هو الاساس ، بل ان الشعر والرواية السوفياتيين قد اعطيا انجازات فنية تقدم لنا موسوعة روحية جمالية هائلة الضخامة عن قضايا الشعوب السوفياتية جماعات وافرادا . كما ان مياكوفسكي وايزنشتاين وغوركي (في روايته « كليم سامغين » وقصائده) قد ارسوا مفهوما عن الفن الاشتراكي ، غير تبسيطي ، ولا هو مجرد « ادب طبقي متحزب » وحسب . بل هو ادب انساني له قدرته على الخلود والبقاء . هذه الموضوعة هامة ، وخطيرة وضرورية اذا فهمت بانها تدعو وتقيم الادب والفن اللذين ينشران الوعي الثوري في الجماهير الواسعة من اجل تحقيق الثورة ، وحمايتها ، وتطويرها ، وبناء انسان جديد ، واسع الثقافة متكامل . ان الحياة الاجتماعية ، حياة الناس والبشر ، جماعات وافرادا ، شديدة التعقيد ، وعلى الادب الذي يريد ان ينفذ الى ارواحهم ويسهم في اثراء هذه الارواح ، ورفعها الى مثل الانسانية البروليتارية ان يكون ادب اكتشاف وتجديد وثورة حقيقية، ورؤية ما وراء مظاهر الحياة ، لا ان يكون مجرد داعية او محرض . لقد جرت بين مبدعي الواقعية الاشتراكية نقاشات حول قضايا عامة عديدة يمكن اجمالها بما يلي : ١) ما علاقة الفن بالحزب ، والفن بالدولة ؟ ٢) ما هي حدود التجارب والبحث الحرة بالنسبة للفنان في بلد اشتراكي . ٣) ماذا نأخذ من الكتاب البورجوازيين ؟ ٤) ما هي الجرعة السياسية والدعائية التي يمكن ان ينضمنها فن اشتراكي ؟ ٥) ما هو التقدير الحقيقي لاوضاع الآداب والفنون في العالم الرأسمالي ؟ ٦) منذ اواخر القرن الماضي ، حدثت ثورة علمية وفكرية وتقنية في جميع ميادين الحياة ، لاسيما في العلوم والتقنيات ، وتبعتها في ذلك بعض مظاهر الادب والفن في الغرب اولا ، ثم في روسيا (المستقبليون ، الشكليون الخ) فما هو الموقف الاشتراكي من كل ذلك ؟ ٧) هل الفن ، بشكل عام ، هو عنصر معرفة ، جمالي ، ام انه اضافة جمالية ، الى الحياة بلهم ، بقدرته على احداث الانفعال الجمالي ، قيما عليا تكون أصح واعمق في تثقيف النفوس وتطوير الوجدان وتوسيع المدارك العقلية والحسية بواسطة ابعاد الفن الحر العظيم . الخ الخ.

الحقيقة ، انه قد نشأت ، على جميع هذه الاسئلة ، اجوبة مختلفة كان كل منها مرتبطا بظرفه التاريخي وقدرة ومستوى المبدعين والمنظرين الذين كانوا يشتركون في هذه الابحاث والمناقشات والابداعات .

على السؤال الاول أجاب لينين واللينينيون بانه طالما كان الحزب والدولة يعملان في خدمة الشعب ، فلا عذر للادباء والفنانين في عدم التجاوب مع الاتجاه الثوري الشعبي ، ولكن لتحقيق ذلك يجب اعتماد وسائل الاقناع والتعليم والرعاية ، والاهتمام بمصائر الادباء والفنانين . اما السؤال الثاني ، فقد احدث منذ البداية نوعا من الاشكال والمسالية Problématique فقد كانت البلاد في حالة دمار بعد الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية . وينبغي للادب ان يهب كعامل او جندي بسيط مع العمال والجنود والفلاحين ، لرفع الهمم ، واثارة النخوة في النفوس ، وان يلعب دور داعية ومرشد وموجه . اما الابحاث والتجارب والمحاولات الشكلية فتستطيع ان تنتظر . ان حرية الاديب جزء من حرية شعبه. واستجاب كثيرون لهذا التوجيه الصارم ، ورفض كثيرون ، وبينهم عباقرة امثال بوتين وباسترناك والكسي تولستوي الخ.. ومع ذلك ، فقد اعطى غوركي ومياكوفسكي وايزنشتاين وبروكوفييف ، وشوستاكوفيتش ، خميرة طيبة لجسارة البحث ، وقدرة الابداع ، والرقي بالاحساس الجمالي الانساني ، وعدم الاكتفاء بالمهمات السياسية مهما كانت كبيرة ، وعدم التنكر بالطبع ، لهذه المهمات .

مسألة الاخذ من الادباء البورجوازيين ، في البدء ، وبدافع من غوركي ، انشئت دار نشر كبرى ، اخذت على عاتقها ترجمة روائع

التراث الانساني بكامله وافتتحت مجموعتها الكبرى بترجمة قصص الف ليلة وليلة وكتب لها غوركي مقدمة رائعة . لكن هذه الدار تعثرت بعد سنوات قلائل ، واستمرت بعض دور النشر تنقل لكبار ادباء العالم ، الذين لا جدال في عظمتهم وخلود أدبهم (شكسبير ، اناتول فرانس ، بلزاك ، الخ) اما اليوم ، فيعرف الاتحاد السوفياتي اوسع حركة ترجمة في تاريخه . ان آلافا من روائع العالم تنقل الى لغاته من جميع آداب العالم .

واريد ان يعرف الاستاذ ابراهيم جرادي ان هذه الترجمات الى اللغات السوفياتية تشمل ايضا روايات وكتب ادباء معادين ، الى هذا الحد او ذاك ، للاتحاد السوفياتي ، في مواقفهم السياسية وكتاباتهم اليومية (كفرنسوا مورياك ، مثلا) ذلك ، لان الغاية من التحزب والحزب والنضال ليس تقوية الحزب وتشديد النضال وتقديس التحزب بل الغاية النهائية هي الانسان ، ورفع وعيه ، وتكبير (انسانيته) ومنحه القدرة على ان يجابه بثقافته وسموروحه جميع مشاكل بناء الانسان الجديد ، هناك اتجاهان بالنسبة الى السؤال الرابع ـ اي : ما هي الجرعة الدعائية والسياسية التي يمكن ان يتضمنها الادب الاشتراكي ـ فالسياسيون اجمالا يشجعون الادباء والفنانين في الاتحاد السوفياتي على تقديم اعمال تخدم قرارات الحزب ومهماته عن كثب ، ووجهة نظر هؤلاء السياسيين انه طالما ان هذه القرارات هي ارادة الشعب ، وتعبيرات عن امانيه ومطامحه ، فانه لا شيء يمنعها من ان تندرج في ابداعات الادب والفن ، لكن الفنانين والاكاديميين ورجال العلم والثقافة ـ وبينهم بالطبع حزبيون كثيرون ، والنقاش هذا كان يجري في اطار من التعاون والمودة وحب معرفة الحقيقة ـ يقولون ويؤكدون على ان اعتماد المباشرة في الاعمال الفنية افقار حتى لمضمونها السياسي والاجتماعي وذلك نظرا لانها ستصبح اقل اقناعا ، وفي الاتحاد السوفياتي اليوم ، نرى تعادلا للاتجاهين ،ولا شك في ان تقدم الثورة العلمية والتقنية والدخول الى عهد الشيوعية ،وازدياد ارتقاء الانسان السوفياتي واكتناز ثقافته سوف يحمل النصر الى الاتجاه الثاني ، اي ان الفن والادب ، مع ضرورة ان يكونا معاصرين يرسمان صورة عميقة وزاخرة بالصدق لقضايا ومشاكل حياة السوفياتيين ، لكن ذلك يجب ان يقدم كله في اطار الفن وحسب قوانينه الجمالية. والمسألة ، بعد ، في هذا المجال ، عائدة الى حجم موهبة الاديب وقوة شخصيته ، وصلابة يقينه بقيمة ثوابت الفن ومقولاته ه) كثيرا ما ترد على اقلام بعض النقاد والمعلقين السوفياتيين ان الرواية الغربية في انهيار ، وان الانحطاطية هي صفة الفنون في العالم الرأسمالي الغربي . ولكن المطلعين الحقيقيين السوفياتيين على اوضاع الآداب والفنون في البلدان الرأسمالية يعرفون ان الحقيقة تختلف عن ذلك . وهم يحاولون نقل اكبر عدد ممكن من روائع الآداب الغربية التي هي اليوم في اوج ازدهارها . وكذلك يجري نقل روائع من آداب شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . ان كثيرا من الانماط الرائعة للفنون الغربية تدخل بصعوبة في البدء ، ثم تفتح لها طرقات واسعة، في رحاب المجتمع السوفياتي : الموسيقى الحديثة مثلا ، وفن الرواية الجديدة ، والازياء ، ولا سيما المسرح الخ. بقيت النقطة الاخيرة وهي مرتبطة بالنقطة التي سبقتها والرد عليها واحد : ان منظري علم الجمال الماركسيين ، ينقسمون الى قسمين رئيسيين في العالم اليوم، بالنسبة الى طبيعة العمل الفني ، فقسم منهم يرى ان العمل الفني. ونحن نتكلم هنا عن القصة فلنقل ان القصة ، في رأي القسم الاول هي عنصر معرفة جمالي للعالم المحيط بنا . والمعرفة تعني ، الواقعية الدقيقة ، الاشبه بالطبيعة ، كما تعني الشمولية ، والنزعة الاخلاقية، نظرا لارتكاز هذا العمل الفني على مقدار معين وضروري من المنطق والترابط والحس بالمسؤولية .

لكن من المفارقات الطريفة في هذا الصدد ، ان اتباع السوفياتيين الجدد ، قد نخطوا ، الى حد ما ، هذا النوع من الفن وهم لا يقبلون عليه بطيبة خاطر : اذ يكفيهم رواد هذا النوع : اوسترفسكي، وغوركي، شولوخوف ، وسيراموفيتش ، وفاديف ، وبوريس بولينوي والكسي تولستوي . لذلك فان القراء السوفياتيين يلتفتون الى الخيار الآخر: طريق مایاكوفسكي وايزشتاين وبريشت الخ .

والذي يمثله في اوروبا مارسيل بروست وسانت اكسوبيري والبير كامو وكافكا واراغون وبيكاسو وسارتر وسيمون دي بوفوار الخ. وفي الاتحاد السوفياتي : باوستوفسكي ، ونغيبين ، وكازاكوف ، واكسيونوف الخ . الفن ، يقول هذا الاتجاه الذي عبر عنه جيدا منظرون امثال فيشر وغارودي وبعض نظريي علم الجمال في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا،هو اضافة جميلة ، حية الى الحياة ، اضافة نستمد من حياة الواقع كل عناصرها . انها ليست اختراعا غريبا ولا بدعة او « صرعة » ، لكنها لكي تستطيع التعبير عن الانسان الحديث، الانسان البالغ حدا عظيما من العلم والوعي والتطور والنمو الذوقي والجمالي ، فيجب ان يكون له فن جديد تماما ، الفن يجب ان يرفع عاديات الحياة اليومية الى فيم الاسطورة الملهمة (بكسر الهاء) واصحاب هذا الاتجاه يرون ان التربة الجمالية ، وحتى السياسية ، ـ على نطاق الفن ـ لا بد ان تكون عن هذه الطريق ، وبهذا المنهج الجمالي الجديد ، وهو اعادة خلق الحياة من عناصر الماضي والحاضر والمستقبل وهذا الاتجاه يكسب أرضا جديدة باستمرار في البلدان الاشتراكية . ونجري محاولات خطيرة تركيبية ، للتمكن من ابداع هذا الفن ، في الوقت نفسه اكبر قدر من الحرية والتفنن والاستقلال الجمالي ، وأعلى قدر من المضمون الاجتماعي والسياسي » النحاتون السوفياتيون ينجحون اكثر من سواهم في هذا المضمار . ومحاولات الحوار ، والتطوير ، ومراجعة الابداعات ، والمقايسة مع نشاطات الغرب جارية في الاتحاد السوفياتي بنشاط كبير .

ماذا نستنتج من كل ذلك ، في موضوعنا المحدد ، وهو موقف النقد الماركسي و« الادب الحزبي » من الادباء والفنانين العرب ؟ اولا ، ان المفهوم الطبقي الحزبي في الادب والفن ليس مقولة قائمة بذاتها ،بل هي مرتبطة بالعديد من التطورات التاريخية والفنية والجمالية والتجارب المتنافضة والصراعات التي تحدثنا عن بعضها . والمهم بالنسبة لموضوعنا ، انه كان من اولى واجبات النقد التقدمي في القطر السوري ان يقيم حوارا مع مبدع كبير مثل عبدالسلام العجيلي. الادانة سهلة يا استاذ ابراهيم . اما الصعب ، والضروري جدا فهو كسب ادباء كبار ، وفنانين موهوبين ، وقيم حضارية ضخمة الى جانب حركة الثورة العربية ، هناك رأي لدى كثير من قيادات هذه الثورة، ولعله موجود لديها كلها يقول : الطريق امامنا مفتوحة ، ومكاتبنا معروفة ونحن بتنظيمات كبرى وهم افراد ، فليأتوا الينا وهو اسوأ موقف يمكن ان تصاب به ثورة تتعثر بالف عقبة ، مثل ثورتنا القومية التقدمية الاشتراكية العربية ، التي تقودها ، بصورة اساسية قيادات بورجوازية صغيرة ، ليس المنظور الفكري ولا الفني واضحا امامها دائما . هل أجرت الحركة التقدمية حوارا مع عبدالسلام العجيلي وامثاله من كبار الفنانين الموهوبين ؟ هل اصدرت الدراسات الوافية ـ سلبية كانت ام ايجابية عنهم ـ ؟ هل اهتمت بما يهتمون به ـ وهو في النهاية يهم الشعب العربي باسره ـ ؟ وما هي المساعدة المعنوية والنظرية الفكرية التي قدمها التقدميون لامثال العجيلي ونجيب محفوظ ومئات القصاصين والفنانين المبدعين ؟ لست ادري . ليس لدي جواب . فهل لديك جواب ؟

هناك ولا شك في ابداعاتنا عناصر ادب حزبي طبقي بروليتاري ، لكنها تكاد تضيع في خضم يضم كل صنف ولون من اصناف التيارات

العالمية . لا بأس . البشرية واحدة . في النهاية . والتلاقح والتفاعل الثقافيان ضرورة ملحة . والناس يتلاقون بواسطة آدابهم ، التي هي خلاصة ارواحهم ووجداناتهم . لكن ينبغي ان يكرس للفنون الوطنية والشعبية حيز هام من اهتمامات السلطات في البلدان التقدمية ، والمنظمات التقدمية البروليتارية وسائر ابناء الشعب ، والمتعلمين منهم بخاصة ، ان الفن قوة عظيمة ، وليس من الضروري ان يكون ذا طابع سياسي صارخ . يكفي ان تفكر قليلا باعمال الرحابنة ، الموسيقية مثلا ومدى تاثيرها في ارواح الملايين العربية ، حتى يتضح لك ما اريد الاشارة اليه ، يكفي ان تفكر في مبدع عظيم كتوفيق الحكيم، لم تقدم له النظرية التقدمية اية مساعدة هامة ، ومع ذلك فهو مستمر في الابداع ، مع طليعة الطليعة فنا مدهشا ، يكفي ، بل يجب ان تفكر في نهضة المسرح السياسي المصري العظيم في الستينات ، ثم انحساره المؤلم ، اليوم بسبب تقاعد كبار النقاد عن دعمه ، وتحكم اجهزة الاعلام الكبيرة ، الهائلة التاثير ،في عاصمة الثورة العربية، كذلك يجب ان نعرف ان الفن الطبقي ، حتى ذلك الذي ينبثق من احشاء الطبقة العاملة ، واعماق الشعب ، يقوم بمهمته الاولى كدافع الى الثورة ، ومسهم في تغيير وجه الحياة ، ولكن الفن الحقيقي ـ والفن البروليتاري مفروض فيه ان يكون ارقى بما لا يقاس من الفن الذي كتب في ظل البورجوازية ـ يجب ان يضع يده على العروق الجوهرية لتطور الحياة والانسان والتاريخ ، وهكذا ينشيء اعمالا خالدة ، تظل تنمو مع نمو الشعب الذي انجبها . هكذا هو فن بوشكين ،وهكذا هو فن غوته . وهذا هو فن ايلوار . وذلك هو فن ناظم حكمت .

بعد تشديدك يا استاذ جرادي على « الفن الطبقي اللينيني المتحزب » اثرت حماستي لقراءة قصتي صديقيك عادل ابو شنب وعبدالله ابو هيف . وكنت اتلهف لارى نموذجين لهذا الفن الحزبي الطبقي في القصتين ، فخاب ظني ، من هذه الناحية ، وتاكد لدي انك غير جاد ، في مفهومك حول الادب « الطبقي اللينيني المتحزب » ولنستعرض القصتين معا .

أ ـ قصة « احلام ساعة الصفر » لعادل ابو شنب هي قصة رومنطقية بدائية ، طوباوية ، حاول كاتبها ان يعقد هذه البدائية الطوباوية فيها بجعل بطليها اوطيين « مناضلين ! » طامحين الى تحقيق السعادة والعيش في جنة الله على الارض . والقصة تجمع بين وصف مراحل الشذوذ والسجن والمغامرة وهزيمة « الايام الستة »والفرار من جماعة البشر . والقصة رغم تركيبها الحديث ، البارع ، في تغيير التسلسل الطبيعي الزمني المالوف الى بناء معقد يعتمد بمهارة وخبرة طريقة التاخير والتقديم للاحداث ، قد فقدت حظها الفني الذي كان يمكن ان ينقذ مضمونها ـ الهرب من عالم خانق ، غير انساني ـ واسلوبها الانشائي ـ شاعرية صافية رقراقة تخدم الجو الملائكي الطفولي ، جو الفردوس الارضي الذي فر اليه الراوي ، وصديقه المعشوق ، الشاب الاشقر محمود . اقول : لقد فقدت هذه القصة حظها في النجاح لان الكاتب . جسّد وقائعها واحداثها ، المروية كما اسلفت في شكل جيد من المونتاج الذي يحرك الفكر ـ جسّده في صميم هويّة الواقع ومظاهرة الطبيعية ـ الفوتوغرافية photonaturalistes الحسية الخرفية ، وان كانت شاعريته جميلة توحي بشعور من الراحة والاطمئنان . لقد افقد الكاتب قصته الطابع الاسطوري ، او البعد الاسطوري المعمق ، الملهم (بكسر الهاء) الذي كان ضروريا لها ، والذي كان يمكن ان يضفي عليها ، رغم ضعف مضمونها ، ابعادا تجعلها عملا صادق الامتاع على الاقل . اما على اساس المقياس الذي يهول به علينا الاستاذ ابراهيم الجرادي ، اي المقياس « الطبقي النضالي المتحزب للشعب والطبقة العاملة » ،فقصة « احلام ساعة الصفر » لا تزيد عن كونها قصة هروبية ، انحلالية، فردية النزعة ، وهي مناقضة ومعادية للموقف النضالي المذكور .ولا عبرة في خضوع بطليها للتعذيب لانهما تكلما مرة في السياسة، بل المهم كيف انتهت مسيرتهما وتجربتهما . لقد انتهت بانهزامية دنيئة حقيرة ، اذ يهتف بطل القصة الرئيسي في نهايتها ، بعد عودته مع عشيقه وشريكه في مجامعة الغزلان الساحرة الجمال وسط جنة النعيم تلك الضائعة بين الارض والسماء يهتف الراوي، بطل القصة « منذ الليلة يا محمود ، نحن كل شيء ، لن اعبأ بحياتي ملكي . انا محور العالم . الاوطان لا قيمة لها .. تعال لنهرب ، لنهرب ، لنهرب .» ولعل هذه القصة ، في اعماقها ، تحاول ان تعبر عن احاسيس الرفض والاحتجاج المأساوية الحقيقية التي تولدت في نفوس الناس العرب اثر عمليات اضطهاد معروفة في تاريخنا القريب ،وعقب هزيمة الايام الستة من حزيران ، لكن الوسائل التي اختارها القاص ولست ادري لماذا ـ اذ انه كاتب قصة «كبير التجربة على كل حال ـ » لم تخدمه لبلوغ غايته الفنية .

ب ـ أما قصة « الرجل الذي نسي عيد الميلاد » فهي رغم غرابة تركيبها ، وغموض ملامح ابطالها ، ولا سيما بطلها الاساسي . ـ وهو غموض مقصود كما اعتقد ـ فهي قصيدةقصصية سوريالية رائعة ، مكتنزة بالايحاء، ونداء الابعاد، حافلة بجو الغربة والوحشة والضياع والنزق من رتابة الحياة اليومية وتفاهتها ، يلطف من ذلك كله ،شاعرية خفية ، عميقة الغور ، تجري مثل جدول جوفي تحت حدائق غناء ، ملأى بالاشباح المفزعة . استطاع عبدالله ابو هيف ان يشيع هذه الشاعرية الندية المستجنة في قصته التي يتحرك فيها بطل واقعي جدا ، واسطوري مدهش . ومؤكد ان عبدالسلام العجيلي ، حين قرأ منها مقطعين اثنين باعتبارهما نموذجا « كاريكاتوريا » لم ير سوى ظاهر هذه القصة ، اي تركيبها الغريب ، انه لم يقراها كما ينبغي ان تقرأ ، اي كقصيدة قصصية سوريالية عن الغربة الموحشة العميقة والنزوع الى شيء مبهم يؤرق اعمق اعماق الروح ، ام لعل الدكتور العجيلي ، وقف من القصة ذلك الموقف المسبق الرافض لاساليب وتجارب القاصين العرب الجدد مبادلا بعض القاصين موقفهم منه ومن ابداعات جيله . ومهما يكن من امر ، فان الواضح تماما ان الدكتور العجيلي لم ينفذ الى الخميرة الانسانية ـ الشعرية النفسية العميقة لهذه القصة ، العظيمة الايحاء بل انه لم ير سوى التفكك الظاهري في شكلها ، وان كانت القصة موحدة داخليا بمضمون قوي ، وان كان غامضا بعض الشيء ، القصة يمكن ، مع الاستئذان من الكاتب، اعادة تركيب تسلسلها الزمني الطبيعي العادي (الكرونولوجي Chronologique وهو تركيب بسيط جدا في اساسه : زجل من عامة الناس ،غير واضح الهوية ، مثل اشخاص روب غرييه ، يعاني الملل والرتابة في حياته البيتية ، فياخذ في الارتحال بين مدن العالم الى ان يمل الاسفار . يخرج مرة الى بيت امراة غامضة ، لعلها حسناء استلطفته في الشارع ، فدعته الى منزلها ، او غانية من الغواني المعهودات لكن الرجل « يتردد من الاستفادة من اخطاء الآخرين » ويتوهم فقط انه حصل على شفتيها ، ويروق له هذا التوهم . مع ان الحسناء تحرص على ان يبقى معها وتدعوه بالحاح للبقاء . فيرفض ، رغم رغبته الشديدة فيها . التردد ، ربما الخوف ، ربما الملل من كل شيء يمنعه من البقاء معها . ثم هو يمني نفسه بها بعد اسبوع . لكنه يمتنع عن لقائها مجددا . وبصبح عجزه عن الوصول اليها مستديما .

يخرج الرجل الى طرقات العالم ،ويكتب على جدران المحطات كلمات مبهمة وغامضة عن اميرة منسية تزهو على قمة خدها الايسر شامة .. انها المراة ، الاميرة الرائعة الحسن والبهاء ، التي حلم بها كثيرا ، رآها كريح شتوية تهزه من جذوره فيتساقط كازهار الليمون». في الحانة الصغيرة يشرب الرجل من جراحه . وتتكدس في روحه ووجدانه كل ضغوط الغربة والهزائم التي عاناها « تخلى عنه اصدقاؤه

كلهم » واستجدى المارين في الطرقات ان يمنحوه شيئا من صلابة نظراتهم » هذا الرجل « فاتته القطارات كلها قبل ان ترحل » . حتى الترحال عبر مدن العالم ، لم يعد يعني له شيئا . ثم هناك موعد غامض في الساعة الثالثة يتبادل الحديث عنه الخمار والرجل الغريب. أهو موعد مع حسناء ثانية ؟ لكن الغريب يخاف حلول الساعة الثالثة. في نهاية القصة يعود الرجل صباحا الى رتابة حياته المنزلية . يقرأ خبرا تافها في جريدة . لا يصدق الخبر . يمزق الجريدة وينام » . على هذا الاساس البسيط ، الذي يحتفظ بجماله وايحائه الانساني والشعري المؤثر ،حتى بعد ارجاع القصة الى شكلها الاولي العادي، في التسلسل الزمني الطبيعي لاحداثها ، انشأ عبدالله ابو هيف اقصوصة رائعة . رغم صغر حجمها (٤ صفحات من مجلة المعرفة) وضمّن اعماق هذه القصه تيارا شعوريا موحدا ، يعبر بلغة شعرية نقية كالبلور ، مكثفة الايحاء كالطيب الثمين ، عن نزوع الانسان نحو الحياة المهمة ، نحو الحرية المليئة ، نحو الرحيل ورفضه ذلك في الوقت نفسه ، وعجزه المأساوي عن تحقيق امانيه الاساسية العميقة، لانه غارق في حياة يومية تافهة ، وعلاقات هزيلة ، هذا ، وان الغربة المأساوية الفاجعة المؤرقة ، التي تعتصر القلب والروح ، من اشواق نحو اللقاء بامراة جميلة ، ونيل المباهج معها ، وولوج عالم الحب ، والرحيل الى وطن حقيقي ، اقول : ان الغربة المأساوية الفاجعة ،التي هي الشريان الداخلي للقصة ، تذوب كضبابة صغيرة ، ولكن صلبة كقطعة ضخمة من الماس ، في وهج الشاعرية الكونية التي تسري تحت كل سطر وكل صورة وكل ايماءة ـ والقصة كلها ايماءات متساوقة ـ من عبارات هذه القصة ، الرائعة . الشعر يسري في هذه القصة، تحت عباراتها وحركة اشخاصها سريان نهر خفي ، تحت رمال جدباء هي غربة الانسان ، وتفاهة حياته . ونهر الشعر هو الكون ، والناس ، وربما المستقبل المليء . والشعر هنا ، وهو عنصر ملازم لجميع الفنون الاصيلة ، يأخذ في هذه القصة ابعاده الكونية ، وقامته السامقة ،بصفته خلاصا اكيدا من ماساة العيش الصغير .

لكن هذه القصة ذات طابع كوني : لا زمان ، لا مكان ،لا اشخاص محدودون بالذات ، لا حوادث واضحة ولا مشاعر مركزة . انها مجرد ايحاءات سوريالية ، قوية مكثفة بمهارة . لكن هذه القصة رغم قوتها وروعتها ، لا يمكن اعتبارها من الادب « الطبقي النضالي » الذي أكد عليه ابراهيم الجرادي ، وهوّل عليّ به كرمح في يدجندي انكشاري ، وحاول ان يحاكمني على اساسه ، لمجرد قولي كلمة تقييم صادقة ودقيقة في ادب عبدالسلام العجيلي رغم انتقاداتي للعجيلي، التي ارفقت بها ، في صحافتنا التقدمية ، تلك الكلمة، والتي اوردت للقراء بعضا منها .

* * *

تبقى كلمة اخيرة حول تلميحات ابراهيم الجرادي حول قصصي، وانه كان يتابعها ببعض الاهتمام ، لكنه بعد ان تعرف الى روايات فوكنر وقصائد ادونيس وغيرهم تأكد لديه ان كتاباتي ليست مع الواقعية الاشتراكية بل هي ضدها .

وهنا اعتذر الى القراء لاضطراري للحديث عن اعمالي وقصصي ورواياتي . اولا ما علاقة فوكنر وادونيس بالواقعية الاشتراكية ؟ الاول هو رواية ملحمة شعب الجنوب الاميركي المهزوم امام اميركيي الشمال (اليانكي) في حرب الانفصال ، وما تلا تلك الهزيمة من آبار احقاد في الصدور ، وملاحم انتقام ، وما لا يحصى من التطورات النفسية والاجتماعية والانسانية . واسلوب فوكنر مزيج من الواقعية الطبيعية والاسطورية العميقة الغور . وآفاقه النمائية سوداء فاجعة ، لا يمكن ان يكتفي بها كاتب واقعي اشتراكي . اما ادونيس فلا مجال للحديث عنه ، لانني سبق ان قرأت الشعر السوريالي ومجموعة « شعراء اليوم » « Poétes - d'aujour d'hui » الفرنسية منذ سنوات ، ولا حاجة بي الى تكرار قراءة كل ذلك باللغة العربية .

ولكن يخطر في بالي احيانا انا اعرض لآراء ادونيس في الشعر، لكنني لم اعثر بعد على المجلة الفكاهية المستعدة لنشر تعليقاتي عنها .

ومن جهة اخرى فان ابراهيم جرادي لا يذكر من اعمالي سوى اقصوصتي ورواية ، اطلع عليها ، وربما مصادفة ، من اصل زهاء ستين اقصوصة وقصة طويلة ورواية نشرت طوال عشر سنوات في صحافة التقدميين اللبنانيين .

وعلى كل حال فالكمية لا تعني شيئا كثيرا ، اما النوعية والقيمة فمتروك امر الحكم عليهما للنقاد والقراء . وانا لا استطيع ان اقول مثلما قال ابراهيم جرادي عن نفسه ،بكل تواضع ، في مقاله موضوع النقاش ، انه مع بعض زملاء له ، قصاصين اسماهم ، يمثلون وجه سوريا . لا استطيع انا ان احذو حذو الاستاذ في مثل هذه الاقوال. لانني لا اطمح الى تمثيل وجه لبنان القصصي ، ولا الحصول على ختم المخترة . ومن جهة اخرى ، فيسعدني جدا ان يواصل ابراهيم جرادي مطالعاته وتثقيف نفسه ، فسوف تتسع مداركه باستمرار ، وربما اصبح من ذوي الالباب . لكنه سيعقد اعجابه بكثيرين ، ويتعرف الى مبدعين جدد . فالقارىء الواسع المطالعة كالمسافر ، يتعرف الى عدد لا يحصى من الاماكن والناس والاصدقاء والعشيقات . ولكن المهم ان يعود الى بلده بالسلامة ، في النهاية .

وعلى كل حال ، فلا استطيع ان افرض عليه الاعجاب لا بقصصي ولا باعمال سواي . وكل ما اطالبه به ، هو قليل من المنطق ، وشيء من التواضع . والصدق مع النفس . لقد قال انه سوف يعطي رأيه في محاضرة العجيلي ، فكان ان لخصها في اربعة اسطر بائسة في نهاية مقاله . وذلك لا يعتبر انتصارا فكريا للجرادي . بل كان على الاستاذ ان يعرض المحاضرة بدقة وامانة ،ثم ينقدها ويعرض علينا آراءه القيمة في فن القصة .

اما قول الجرادي بان كتاباتي هي ضد الواقعية الاشتراكية لا معها ،فهو بحاجة الى حيثيات ايضا ودراسة اجمل اعمالي ، ومن جهة اخرى فان حكمه ذاك ساقط من تلقاء ذاته حين يقول اننا جيل بلا نقاد. والشخص المخول ، لن يحكم اذا كانت هذه الكتابات هي مع الواقعية الاشتراكية ام مع الحلاوة الطحينية ، هو الناقد الواثق من نفسه. وطالما ان ابراهيم الجرادي يتبنى رأي سليمان فياض ، من انهم جيل بلا نقاد ، فيجب ان يكف الجرادي عن اعطاء الاحكام الى ان يصبح لديهم نقاد . !

وأسف ابراهيم الجرادي العميق على الهوة التي حفرتها ، كما يدعي ، بيني وبين افكاري ، ثم تحولي الى مبرر ومتملق ، بعد ان اصدرت كافة قيمي الثورية ، فاقول له ان هذه اللهجة هي لهجة مدعي عام في عهد الشيخ تاج عليهم جميعا رحمة الله .

محمد عيتاني

الفن والاخلاق وبشار

بقلم سلافة العامري

قبل أن ألج باب المناقشة في موضوع الفن والاخلاق ، يطيب لي أن أشيد بالدور الذي تقوم به مجلة « الآداب » في خدمة قضايا الفكر والادب العربي والعالمي على السواء ، وانا شخصيا دأبت على قراءة مجلة « الآداب » من الدفة الى الدفة مستمتعة ومستفيدة في آن معا .

وفي عدد تموز « يوليه » ١٩٧١ طرحت « الآداب » للمناقشة موضوع الفن والاخلاق من خلال دراسة الدكتور محمد النويهي لرائيه بشار بن برد

واستهل مناقشتي بتهنئة الدكتور النويهي على دراسته الشاملة الضافية ، باسلوبها الممتع الشيق ، واخص بالذكر ترجمة الشعر الى العامية التي ساعدت في هذه الدراسة بالذات على تمثل المعنى تمثلا صحيحا .

وقبل ان نعطي الرأي المحدد في رائيه بشار وهل نقبلها في دائرة الفن أم نرفضها ، احب ان اقول انني من الذين يعتقدون ان القيم الفنية التي يخضع لها اي حكم نقدي هي خلاصة اعتبارات كثيرة متشابكة ، اولها بلا شك الاعتبار الذوقي يليه الاعتبارات الاخرى والتي لا يمكننا ان ننكر اثرها كالاعتبار الفكري ، والاعتبار الاجتماعي والاعتبار المادي والاعتبار الروحي والاعتبار الاخلاقي .

اما فيما يتعلق برائية بشار وهل نقبلها في دائرة الفن ام نرفضها ، فانني اقول ان الاعتبار الخلقي في هذه الرائيه يسير في خطين منفصلين ، الخط الاول هو اخلاق بشار الشخصية ، وقد انعكست في تجربته تلك التي عبر عنها بهذه القصيدة ، بصدق وعفوية واخلاص للفن لا يمكننا انكاره ابدا ، لا سيما قدرته على التعبير عن ادق المواقف باسلوب رشيق استعاض فيه بالتلميح الجميل عن التصريح الفاحش والفاضح ، وهذا ابلغ الفن فيما نعتقد، كقوله :

واسترخت الكف للعراك ، وقا لت : ايه عني ! والدمع منحدر

اما طبيعة اخلاق بشار التي تتجلى في سخطه وحقده ورغبته في التشفي والانتقام من معاصريه ومن الناس جميعا ، فاننا نرى فيها عاطفة مشروعة ، وذلك لاعتبار مادي يتجلى في عماه القبيح وما جرّه عليه من عنت الناس وعبثهم ، والذي طالما تحدثت عنه كتب التاريخ الادبي عند العرب .

فنحن لا يمكننا ان نطالب بشارا او ابا العلاء المعري او اي شاعر في مثل ظروفهما او ما يقاربها بان يكون غير ما هو عليه من سخط وحقد وتشاؤم .

واما الخط الثاني الذي يسير فيه الاعتبار الخلقي في هذه الرائيه فانه يتجلى في مدى تاثيرها على اخلاق القارىء المتلقي لها والعبرة التي يستنتجها منها .

وهنا يحسن بنا ان نعيد الى الذهن اعتراف الدكتور النويهي الذي يقول فيه :

« وحين تبلغ ابنتي درجة التعليم التي تمكنها من متابعة القصيدة فساعرفها بها واشرحها لها شرحا تام المصارحة، مدركا انني بهذا ابصرها بحيل المغرين فاصونها بالطريقة الوحيدة المجدية من الوقوع في شباكهم » .

ويقول الكاتب في مكان آخر من الدراسة : « فلا نجن نعجب بمهارته في الاغراء (اي مهارة بشار) ولا نحن نسخر من الفتاة كما يريد منا ان نسخر منها ، بل النتيجة الوحيدة لمحاولته هي ان ننفر وننحاز الى صف الفتاة انحيازا تاما » .

وهكذا نرى باعتراف الدكتور نفسه ان الاثر الذي خلفته القصيدة فيه عظة وفيه عبرة ، فهي قد صانت الاخلاق من حيث اراد صاحبها ـ كما بدا للدارسين ـ هتك حرماتها .

فشخصية بشار في هذه الرائيه ، وشخصية فتاته كلاهما نموذج انساني موجود في كل مكان وزمان ، وقد صور الشاعر تجربتهما بريشة فنان حاذق دون ان يضمن النص اية دعوة صريحة للتشبه بهما او الاقتداء باي منهما .

وكانت النتيجة ـ استنادا الى دراسة الدكتور النويهي لكل من هاتين الشخصيتين ـ ان استخلصنا من هذه القصيدة عبرة وعظة تنفي عنها السقوط الاخلاقي وتدخلها في دائرة الفن المشروعة .

دمشق **سلافة العامري**

آفاق جديدة

طموح كبير الى حياة افضل

هذا هو الشعار الذي ترفعه الاكثرية الكبرى من الشعوب النامية في عالم يموج بالحركة والانتاج والتقدم العلمي المذهل .

وهذا بالضبط مادفعنا الى اصدار هذه المجموعة من الكتب المختارة من انتاج كبار كتاب العالم المعاصرين والمترجمة بمنتهى الدقة والامانة ، لكي نفتح لقرائنا العرب نوافذ ثقافية مضيئة تطل بهم على آفاق عالمية ذات مستوى رفيع ، وتفتح عيونهم على مجالات جديدة للعلم والادب والفن لم يطالعوها من قبل، وتأخذ بايديهم ، وهم في اوج تطلعهم وسعيهم نحو المستقبل المشرق ، الى المزيد من التفهم والمعرفة للعلوم والفنون الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية والصناعية التي اوصلت الامم من حولنا الى تلك القمم العالية من الرقي والتقدم والازدهار .

صدر الكتاب الاول :

وطن حرّ ومستقل

تأليف نويل برترام غيرسون

ترجمة لجنة من الاساتذة الجامعيين

١٦٠ صفحة من القطع الكبير والطباعة الفاخرة.

٣٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

منشورات ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت